إشكالية الخصوصيات الثقافية في ظل العولمة

د/ ساحل مخلوف

إن الحديث عن العلاقات الثقافية الدولية يعني بالضرورة الحديث عن جوهر وطبيعة النظام الثقافي الدولي (l'Ordre Culturel International)، الذي يشمل المجال الثقافي والإعلامي والمعرفي والتكنولوجي والحضاري.

كما أن الحديث عن العلاقات الثقافية الدولية أو النظام الثقافي الدولي لا يمكن أن يكون دون الإشارة إلى التداخل والتأثر الذي هو قائم مع النظام الاقتصادي الدولي والنظام السياسي الدولي، بحيث تشكل هذه الأبعاد الثلاثة الأساسية في العلاقات الدولية أهم المجالات التي برزت فيها بوضوح تداعيات مسارات العولمة الراهنة.

وتبعا لذلك فإن العلاقات الثقافية الدولية تتميز بصيغتها الجدلية القائمة بين الخصوصيات الثقافية والعولمة، وتبرز أيضا بشكل جلي في الشرخ الذي تعزز في ظل العولمة الثقافية بين الشمال والجنوب سواء من وجهة نظر ثقافية أو إعلامية أو تكنولوجية، وكل ذلك سوف نحاول إبرازه من خلال المحاور الموالية.

المحور الأول: تفاقم الفجوة بين الشمال والجنوب

شكل النقاش حول موضوع الفجوة والشرخ بين الشمال والجنوب إحدى أهم المواضيع التي استقطبت اهتمام الباحثين منذ السبعينات إلى يومنا هذا، علما وأن هذا النقاش انصب دوما حول طبيعة العلاقات الثقافية الدولية التي يميزها الجدل بين الصراع والحوار، وحول إشكالية إعادة بناء نظام إعلامي وثقافي دولي جديد قائم على أسس متوازنة في كل أبعاده المادية والمعنوية، ومدى إمكانية الاستفادة العادلة والمتوازنة بين الشمال والجنوب فيما يتصل بالثورة التقنية والتكنولوجية والمعلوماتية التي شهدت تطورا مستمرا ومهما إلى غاية الوقت الراهن.

وإذا كانت ثورة الاتصال والمعلومات في ظل العولمة الراهنة قد حولت العالم إلى قرية إعلامية صغيرة فإنها أيضا لم تتمكن من تقليص حجم الفجوة والشرخ الذي كان قائما

بين الشمال والجنوب، بل تفاقم الوضع إلى درجة أن الأمر أضحى اليوم يشكل أحد التحديات الأساسية التي تواجه العولمة الثقافية. فالفجوة الفاصلة بين الضفتين أصبحت اليوم متعددة الأبعاد من حيث إنها مرتبطة بالنمطية القيمية النهائية التي تسعى الدول الغربية إلى فرضها على المستوى العالمي تبعا لتفوقها المادي والتقني ونظرا لغياب مشاركة الدول الجنوبية بحكم ظروفها المعبرة عن تخلفها، زد على ذلك فإن الفجوة أيضا أصبحت "فجوة رقمية" (Fossé numérique) كون أن القوى الشمالية الكبرى تعد المتحكمة في الثورة التكنولوجية والمعرفية مما سمح لها بتحقيق تطور تقني وعلمي كبير لم يسبق له مثيل في التاريخ.

كما كان أيضا للثورة التكنولوجية التي شهدتها وسائل الإعلام والاتصال أثرا مهما في تعزيز الهوة بين الشمال والجنوب من حيث امتلاك تلك التقنيات المتقدمة ومن حيث استخدامها، ومن المظاهر السلبية لتلك الفجوة أيضا نقل قيم وطرق حياة مغايرة تستمد أصولها من أوعية حضارية مختلفة، وانتشار مخاطر التشوه الثقافي خصوصا بالنسبة للمجتمعات التي تعيش أزمات في هوياتها الثقافية.

لكن ذلك لم يمنع من أن الثورة التكنولوجية كان لها مظاهر إيجابية مكنت الإنسان من تخطي الحدود الضيقة للإعلام المحلي، وتوسعت مسألة حرية تلقي البرامج والمنتوجات الإعلامية المختلفة التي تتدفق عبر القنوات الفضائية الأجنبية، علاوة على ذلك فقد شهد قطاعيا الإعلام والاتصال نقلة نوعية وجذرية نتيجة للتمازج الذي وقع بين وسائل الإعلام والاتصال المكتوبة والمسموعة والمرئية من جهة وشبكة الانترنت من جهة أخرى، الأمر الذي أثر أيضا على نطاق الرسالة الإعلامية والاتصالية ونوعية إرسالها نتيجة لاستخدام التكنولوجيا الرقمية[1].

إن العولمة الثقافية لم تقضي على الفجوة التي كانت تفصل بين الدول الغنية والدول الفقيرة، فهي بذلك تكون بمثابة عولمة غير متوازنة وغير عادلة وبعيدة عن العولمة التضامنية (mondialisation solidaire) التي تنادي بها الحركات المناهضة للعولمة والدول الجنوبية وغيرها. كما أنها أدت إلى توسعها وتعميقها بين الضفتين، وأكثر من ذلك فقد ساهمت في تهميش الدول الجنوبية عن الحراك العالمي ثقافيا وتقنيا وعلميا نظرا لفقدانها قدرة التحكم في التكنولوجيات الحديثة المختلفة وعجزها عن الاستفادة من تلك الثورات بحكم البيئة الخارجية من جهة وبحكم قصورها كذلك في التكيف مع متطلبات العالم الراهن من جهة أخرى سياسيا واقتصاديا وثقافيا.

إن الشمال الذي ينتج الثورات التكنولوجية والمعلوماتية والاتصالية يوظفها كمقومات مدعمة لمركزه القوي في الساحة الدولية يتفاعل بواسطتها إجابيا مع تداعيات العولمة سيما الثقافية منها، إلا أن الجنوب الذي يفتقد لتلك المقومات يصبح حتما مهمشا في الساحة الدولية، مما يؤثر على تفاعله مع مسارات العولمة بنسبة منعدمة، وتبعا لذلك فإن الفجوة بأبعادها المختلفة إعلاميا واتصاليا وتكنولوجيا توسع نطاقها بشكل كبير بين الشمال والجنوب في ظل العولمة الثقافية والثورات التكنولوجية الراهنة المختلفة[2] وهذه الفجوة تعزز بدورها الهيمنة الثقافية والإعلامية والاتصالية والتكنولوجية لدول المركز على دول المحيط وفق التحليل النيوماركسي.

وفي سياق متصل يلاحظ أن العولمة الثقافية قد ارتبطت بالمجتمع الكوني (Global Society) والفضاء المعلوماتي (Cyber Space) باعتبارها جزءا من التداعيات المتصلة بديناميكية العولمة الثقافية، حيث تعبر عن تدفق المعلومات وانتشارها الواسع والسريع، وكذلك النمو الهائل في حجم الإنتاج الفكري وظهور ملامح ما يصطلح عليه بمجتمع المعلومات (Société de l'information) وما إلى ذلك، إلا أن ما يمكن الوقوف عليه أمام هذا الانفجار المعلوماتي الذي أفرزته العولمة الثقافية والإعلامية والاتصالية هو تفاقم مظاهر الفجوة الرقمية (Fossé Numérique) بين الشمال والجنوب، الذي تعبر عن إشكالية نقل التكنولوجيا بين الدول الغنية والدول الفقيرة، وبالتبعية لذلك يطرح الحق الإنساني في المعرفة لمواجهة التحديات الاقتصادية والاجتماعية والتنموية، وهذا الوضع لم يتغير بفعل تداعيات العولمة ولا بفعل الثورات التكنولوجية المختلفة لأن الموضوع يتصل بالسيطرة الكبيرة التي تمارسها الشركات المتعددة الجنسيات الكبرى في هذا المجال، ضف إلى ذلك ظهور طبقة جديدة تسمى النخبة المعلوماتية (information élitiste) يمثلها كبار رجال الأعمال في مجالات المعلوماتية والإعلام والاتصال من آمثال " بيل قيتس، (Bill Gates) و" روبرت ميردوخ (Robert Murockh) وغيرهم.

فهذه النخب تتمتع بنفوذ كبير وتمارس سيطرة فعلية على البيئة المعلوماتية والبينية التحتية للاتصالات، كما تسيطر على الوسائط المتعددة الخدمات، أي إنها تسيطر على المعرفة المعلوماتية، وتتحكم في نشرها وتوزيعها عالميا بناء على مصالحها المتطابقة في الغالب مع مصالح الدول التي تنتمي إليها، مما يساهم في تعميق ما يصطلح عليه بالفقر المعلوماتي في الجنوب الناتج مباشرة عن الفجوة القائمة بين الشمال والجنوب، و يجعل الدول الجنوبية[3] الفقيرة معلوماتيا تواجه تحديات

وصعوبات خطيرة تعقد من وضعيتها في الساحة الدولية وتقلل من فرص تعاملها بشكل فعال وإيجابي مع تداعيات العولمة الثقافية.

المحور الثاني: الجدل بين الخصوصيات الثقافية والثقافة المعولمة

تتصب مسألة الخصوصيات الثقافية والثقافة المعولمة في إطار إشكالية واسعة النطاق والتداعيات، بحكم أن الأمر يصبح متصلا بإشكالية التوفيق بين ما تفرزه الثقافة المعولمة وفق النمطية والنمذجة الغربية من جهة وكيفية الحفاظ على الخصوصيات الثقافية المرتبطة بالمجتمعات الإنسانية المختلفة وضمان استمرارها من جهة أخرى.

فالحديث عن الثقافة المعولمة يعد مرتبطا بشكل وثيق بمسألة الكونة القيمية للمبادئ والقيم الغربية وهذا ما يصطلح عليه بغربنة العالم (Occidentalisation du monde) تبعا للأمركة (Américanisation) التي تعني صدارة القيم والمعايير والمبادئ المعبرة عن الثقافة والحضارة الأمريكية باعتبارها جزءا مهما من الحضارة الغربية، وهذه الأخيرة تشكل الوعاء الحضاري المشترك بين الحضارات المسيحية واليهودية والتي تسعى القوى الغربية الكبرى إلى فرضه على العالم.

كما أن الحديث عن الجدل القائم بين الخصوصيات الثقافية و**<u>الثقافة المعولمة</u>** يصب أيضا في الخلاف القائم بين المدافعين عن الرؤية الأمريكية من جهة والمدافعين عن الخصوصيات الثقافية ضمن الحضارة الغربية ذاتها من جهة أخرى كما كان الحال بالنسبة للفرنسيين بزعامة "جاك لانغ" (Jack Lang)الذي طرح بقوة فكرة ضرورة الدفاع عن الخصوصية الثقافية "الفرنسية" (l'Exception Culturelle Française) .

ويطرح هذا الجدل من جانب آخر مسألة الحوار بين الحضارات أو الصراع بينها، انطلاقا من أن البعد الثقافي يشكل مقوما جوهريا وتابعا للبعد الحضاري، وما يهمنا في هذا المقام هو البحث في كيفية التوفيق بين ما تطرحه الثقافة المعولمة من قيم ومبادئ وتصورات فكرية تعد مستنبطة بالأساس من الوعاء الحضاري الغربي، ثم الحفاظ على المكونات الأساسية التي تعبر عن الخصوصيات الثقافية التي يتميز بها كل مجتمع إنساني ثم كل ثقافة ثم كل حضارة. ومن هذا المنطلق تشكل فكرة " الآنا المركزي الغربي" (L'ego –Centrisme occidental) أحد أهم المظاهر التي تعبر عن ذلك الجدل القائم بين الثقافة المعولمة والخصوصيات الثقافية، حيث إن القوى العالمية والقوى الغربية الكبرى التي تقود وتسيطر على مسارات العولمة ،اتخذت أساليب هيمنية (Hégémonique) تقوم على الاعتقاد القوي بالتفوق الحضاري والقيمي الغربي على باقي الحضارات والثقافات وذلك استنادا إلى تفوقها المادي والتقني المعرفي،

مما يجعل قيمها ومبادئها الحضارية جديرة بالاتباع والانصياع لها وفق منطق التفوق والهيمنة والريادة المستحقة، وفي هذا الإطار توجد دراسات رائدة أهمها دراسة "فوكوياما" و"هنتغتون " وبريجنسكي وغيرهم.

إن فكرة الأنا المركزي الغربي تعبر عن المنطق التفوقي والريادي المنتشر لدى الأوساط الفكرية والسياسية الغربية وتعد تجسيدا فعليا للواقع العالمي الراهن الذي تتحكم فيه قوى العولمة والتي تحاول أن تكرس الكونية القيمية في العالم.

وعلى حد تعبير الأستاذ الدكتور برقوق أمحند: " يقصد بالكونية القيمية محاولات تطوير عدد من الأنساق المعيارية والقيمية التي يجب أو على الأقل يمكن أن تطبع العالم وتحكم باسمه ... ويكون مركزها الفرد –الإنسان– العواطف وأن تكون قيما غير معروفة بجنس أو بدين أو بعرق أو بلغة أو بثقافة...". (4) فهذا التصور النظري لفكرة الكونية القيمية يتعارض مع ما هو موجود فعليا في الواقع الدولي الراهن، على اعتبار أن القوى المؤثرة في العالم الغربي تهدف إلى ربطها بشكل وثيق مع فكرة الأنا المركزي الغربي أي "غربنة العالم الراهن" وتنميطه، أي جعله معالما وفق النمطية والنمذجة الغربية بهدف تكريس هيمنة الحضارة والثقافة الغربية على باقي الثقافات والحضارات.

بالإضافة إلى ذلك فإن هذا التصور الريادي والتفوقي المتصل بالأنا المركزي الغربي يشكل أيضا تواصلا فكريا وعقائديا مع دعاة الإيديولوجية النيو ليبرالية المتوافقة مع أطروحة نهاية التاريخ وانتصار القيم الليبرالية الغربية والتي نادى بها "فوكوياما" والمتطابقة أيضا مع أطروحة صدام الحضارات التي نادى بها "صامويل هانتغتون" ومفادها أن أساس الصراع الدولي لفترة ما بعد الحرب الباردة يقوم على البعدين الحضاري والثقافي.

ومن هذه الزاوية تصبح الغربنة تعبر عن الكونية وفق منطق هيمني (Logique Hégémonique) وفي هذا السياق يرى أحد كبار المنظرين الاجتماعيين المعاصرين "جورج زمل" (George Simmel) " ... أن الكونية في حقيقتها ليست إلا اصطلاحا جديدا لتوصيف التوسع شبه الاستعماري الذي تحققه المراكز الحضرية والمدنية في عالمنا، وذلك من باب إضفاء الشرعية على الزحف غير الشرعي لهذه المراكز على المناطق النائية الحساسة والمتفرعة جغرافيا وسياسيا في عالمنا...".(5)

وتبعا لما سبق فإن الثقافة المعولمة تهدف إلى فرض نمطية معيارية وقيمية غربية، من خلال قولبة القيم السياسية والثقافية والحضارية وفق هذه النمطية، وبذلك فالقوى المدافعة عن هذا التصور تسعى إلى

إعادة تشكيل السلوك السياسي للدول وتعمل أيضا على إعادة تشكيل المخيال السياسي والثقافي والحضاري للشعوب، مما يعني أن الثقافة المعولمة تطوع الموروث السياسي والثقافي والحضاري للشعوب وتعيد محورته حسب محددات الموروث والتراكم القيمي الغربي، مما يخلق مجالا خصبا للجدل بين هذه الثقافة المعولمة والخصوصيات الثقافية، ويطرح كذلك إشكالية التوفيق بين المكتسب (l'Acquis) والموروث (l'Inné).

إن كل ثقافة تتكون من بنيتين أساسيتين، الأولى تتمثل في الموروث الذي ترثه من بيئتها ومجتمعها وثقافتها وحضارتها، أما الثانية فهي تخص المكتسب سواء ما يكتسبه الفرد من المنظومة التربوية أو من الحياة عامة، ثم إن طبيعة العلاقة الموجودة بين هاتين البنيتين هي التي تحدد وظيفة الثقافة والكيفية التصورية (la Conception) للأشياء، والإشكال الذي تطرحه الثقافة المعولمة (la Culture Globalisée) أو " العولمة الثقافية" (Mondialisation Culturelle) تتمثل في كون أن القوى المتحكمة في ديناميكية العولمة ومن خلالها القوى الكبرى الغربية المهيمنة، ا تهدف إلى التأثير على الكيفية التصورية للشعوب أي التأثير على خصوصياتها الثقافية والحضارية والقيمية، وذلك هو لب الجدل بين الثقافة المعولمة والخصوصيات الثقافية. والإشكال الذي يطرح بقوة في هذا الإطار هو: هل تصور الشعوب لخصوصيات الثقافات المحلية هو نفس التصور لدى الغرب؟

إن الاختلاف واضح في أكثر من مجال كما هو الحال مثلا في مجال الدفاع عن مكانة المرأة داخل المجتمع أو في مجال الحريات الأساسية للإنسان كحرية المعتقد وحرية التعبير وما إلى ذلك. فالخصوصيات الثقافية تطرح مسألة حرية الشعوب في التفكير بعمق من أجل إنشاء إطار مفاهيمي، يسمح لها في الأخير تحديد تصورها للأشياء وحتى تصورها للقيم والمبادئ الغربية المروج لها في ظل الثقافة المعولمة، أي أن يكون لهذه الشعوب حرية تقبل تلك القيم والمبادئ بعد تحديديها لها بنفسها وبصفة إرادية ووفق موروثها ومكتسباتها المختلفة، وذلك انطلاقا من أن ما يأتي من الخارج بإمكانه أن يكون مرجعية نسبية لكن ليست مطلقة، خاصة إذا علمنا أن العولمة تكرس نظاما قيميا يخدم أهداف وتوجهات المالية الدولية (la finance mondiale) والشركات المتعددة الجنسيات والقوى الكبرى.

فالأمر يتعلق بحرب ثقافية وحضارية حقيقية معلنة على كل ما هو غير غربي، وهي حرب ذكية ودقيقة وأسلحتها تستند إلى التكنولوجيا في المعلوماتية والإعلام والاتصال، مما يفرض على الشعوب المختلفة

أن تزود نفسها بالعلم والمعرفة والتحصل بثقافاتها الوطنية.

ومن جانب آخر يظهر أن فكرة ما بين الثقافات (l'inter culturalisme) القائم على التعايش السلمي والتواصل والحوار بين الثقافات المختلفة يعد خيارا وبديلا (6) لائقا لمجابهة إفرازات الصراع والتنافر التي تنتجها الثقافة المعلومة.

فالتفاعل الثقافي يعزز الحوار والاتصال ما بين الثقافات ويجعل التواصل فيما بينها ممكنا(7)، مما يشكل ضمانا لاستمرار الخصوصيات الثقافية والحضارية، وبعيدا عن كل تنميط هيمني للثقافة المعولمة وفق المنظار الغربي.

وخلاصة لما سبق يتضح جليا أن التداعيات للعولمة الناتجة عن الثورة الإعلامية والاتصالية والمعلوماتية والرقمية لم تقض على الفجوة التي كانت قائمة بين الشمال المتقدم والجنوب المتخلف بل زادت من حدتها وعمقها، كما أن إفرازات العولمة الثقافية أو الثقافة المعولمة تقوم على فكرة فرض نمطية قيمية غربية في إطار مسار ثقافي وحضاري يعزز الجدل مع الخصوصيات الثقافية المعبرة عن عمق المجتمعات المختلفة.

وتبعا لذلك يظهر أن عالم اليوم يشهد في اعتقادنا إعادة طرح إشكالية المعادلة شمال - جنوب في ظل مرحلة ما بعد الاستعمار الجديد. وما يستنتج في هذا السياق أن مرحلة ما بعد الاستعمار الجديد تشكل المرحلة الرابعة التي وصلت إليها صيرورة النسق الاستعماري الذي تطور عبر مراحل متتالية، بحيث نجد أن الحقبة الاستعمارية التقليدية شكلت المرحلة الأولى من ذلك النسق، ثم جاءت بعدها مرحلة الاستعمار الجديد كمرحلة ثانية، لتأتي بعدها مرحلة ما بعد الاستعمار كمرحلة ثالثة وفق التصور الذي وضعه المفكر "المهدي المنجرة".

الهوامش

1- Interview de Francis balles, propos recueillis par Philipe, guerrier, le 12 décembre 2001 in : http://www.JDN,fr. / consulté le 27/01/2004.

2- ثامرك، محمد، "تكنولوجيا المعلومات والدولة الوطنية"، شؤون الأوسط، العدد 100، أكتوبر- نوفمبر، 2000، ص 26 وص 27.

3- أحمد محمد صالح، الانترنت والمعلومات بين الأغنياء والفقراء، القاهرة، مركز البحوث العربي للدراسات العربية والإفريقية والتوثيق، 2001، ص 36.

4- أ.د.برقوق أمحند: "الكونية القيمية وهندسة عالم ما بعد الحداثة"، مجلة دراسات إستراتيجية، العدد السادس (06)، جانفي 2009، ص 76.

5- تيموثي برنان، " بين الكونية والدولية: نقد الفكر السياسي الكوني"، ترجمة: محمد علي ثابت، مجلة الثقافة العالمية، العدد 113، يوليو 2002، ص 32.

6- Jose Carlos Garcia, Fajardo, «Dialogue interculturel versus multiculturalisme », traduit par Marcos Suka- UMA UKA in : Le quotidien d'Oran, jeudi 26 Mai 2005.

7- فؤاد السعيد، "العولمة والخصوصية"، مفاهيم الأسس العلمية للمعرفة"، المركز الدولي للدراسات المستقبلية والإستراتيجية، العدد 3، السنة الأولى، مارس 2005، ص 31 وما يليها.